قطعة سلاح يارب

قصة بقلم أكرم شريم

مهداة الى الفدائي الصديق علي ، الذي حضر عدوان السلط ، ووصف لنا آثاره .

وتجتاز السيارة الصغيرة المدهونة بلون الارض ، منعطفا حادا بسرعة عنيدة ، ساحبة خلفها زوبعة عريضة من الغبار ، وهي في طريقها الصحراوي الى السلط المقصوفة قبل قليل . ينتبه ابو أحمد داخلها ، وقد اربكه الميلان المفاجىء القوي مع زعيق العجلات وشحطها ، فتبدو لعينيه المتهدلتين في تحديق مركز، رقعة سوداء متسعة في نهاية منحدر وادي شعيب ، تقترب وتكبر . ضربات العدو كانت لئيمة على السلط كلها .. من السهل اذن ان يعثر على قطعة سلاح بين القتلى .

الدور له الان .

فأبوجهاد وخليل وحسين الاعور وابن السعيد وعادل . وكثيرون من المخيم ، حصلوا على قطع سلاح بين قتلى وجرحى الحوادث، وحصلوا على ذخائر أيضا ،ولم يدفعوا قرشا واحدا . انه اذا نزل باسرته الى المدينة ، وباع افرادها السبعة واحدا بعد واحد ، فلن يجمع له ذلك ثمن قطعة من هانيك القطع الرشاشة « التوماتيك » فواحدتها اليوم اثمن من بقرة حلوب !

وتخطر فيه متعة هيبة .

يصلح وضع الحطة والعقال على رأسه ، ويمد ذقنه بشعرها الوبري المستحلق .. سيكون له واحد مثل رشاش زوج ابنته، ويدخل به الى الخيمة بعيدا عن الانظار .. يخرج علبة رصاصاته من خلف صندوق الملابس وينثرها على الارض ليختار منها ما يناسب رشاشه الجديد . اما بقية الحبات، فسيوزعها على الشباب هكذا .. مجانا.

والى متى يظل يجمع الرصاصات المتنوعة ، وليس لديه قطعة ؟!

وفي المساء بعد أن يبيع خضروانه ، ويكوم السحاحير على باب الخيمة ، كالعادة ، ينعزل مع سلاحه مهما كان نوعه، يخرطش ويسحب المفلاق ، ويطقطق بالزناد مثل العسكر .. طاطا بين الشجر .. طاطا في الشوارع .. طاطا الى السماء .. نحو العقارب التي نزلت بالمظلات في معركة الكرامة ..

ويرتفع صوت السائق المرتدي زي الفدائيين :

ـ سنرى العجائب الان .

يعقب زميله وهو يدخن :

ـ يقولون كان القصف اكثر عنفا على « عين الزيتون » .

قفص السيارة الصغير يتخبط على الطريق الوعر بارتجاج مستمر ومسرع . بين الزيتون امل آخر في الحصول على بندقية .. كل الخيام تبحث عن سلاح وتخفيه .

ويهدس مبعدا وجهه عن هجوم الهواء الناشف من النافذة :

« رب عائلة وعلى خط النار وبدون سلاح ؟! »

يسترعيه الخلف الواجم لكل من الشابين أمامه . وقتها أحس بثقل الصمت الجاثم بين المقعدين الخلفي والامامي . يتنحنح ليتحدث .... ليقول اي شيء .. ليشكر لهما المعروف ، اذ اوصلاه الى حيث يريد دون ان يعرفاه . ويشغله منظر الاسوداد المحروق المقترب . تشحط السيارة باصرار فجاة ، وينفتح البابان عن يمين وعن يسار ، ويصيح به السائق :

ـ تفضل يا عم . . لقد وصلنا .

يترجل متمهلا وفي ذهنه تضاء عين الزيتون كما استطاع ان يتخيلها بعد القصف .

ويؤخذ أبو أحمد !

يهرول معقود التفكير مبهوتا ... يعبر المنطقة المقصوفة الممتدة مجموعة ركامات منتهية الاحتراق حديثا . ظلام ساخن وخانق مفرود تحت ضوء النهار على مد البصر . أناس كثيرون يتوزعون هنا وهناك ، وبعيدا ، يبحثون ، ويحملون ، وينقلون الى سيارات مختلفة الاحجام ، ومبعثرة على الاطراف ! اشعاعات النهار رمادية تتماوج تحتها ومعها ، وفيها ، أبخرة كريهة ودبقة .

ويستمر يهرول ..

روائح الشواء المفعمة بالرطوبة تزحم خياشيمه يسحب المنديل من جيب مريلته الوسيعة في ارتعاش الشيوخ ، يكمم انفه وفمه بينا يتسارع خطوه مع انحناءة الظهر الراقص ، وهبات الادخنة اللزجة تتحجر في صدغيه .. يشغل خروجها هبوب ما هو أعنف منها ، كأنما كل شيء هنا ، قد خرج لتوه من فرن شواء .

سيعود لك الشباب يا أبا أحمد اذا حصلت على بندقية !

وتخرمش صدره مجموعة الادخنة الخانقة ، فتعتصره نوبة سعال يضغط لها بكلتا يديه على منديله ، وهو يهتز مع حشرجة السعلات المتتابعة الصافرة ، الفاهقة ، الصاهلة ، المخنوقة بفرغرة القشع المتمنع في حلقه . ويبصق مستنشقا باتساع ، بحثا عن خيوط هواء منعشة .

هذه شاحنة مقصوفة ومهبطة . يقترب من مكان السائق ويده لا تفارق منديله المترطب . يمد عنقه مستطلعا، فيفاجئه وجه ميت مائل في شخوص مشدود الجلد ووحشي التطلع . يدور متخطيا مقدمة

السيارة الخافسة ، باحثا حواليه وحواليها ، وهي طابسة فوق عجلاتها المختفية ، ومتفسخة الاجزاء . يرى مرافق السائق ساحلا من الباب المخلوع المتحطم ، ومفجور الجمجمة .

وترمي حركة الهواء هبة قطران محروق .

يدوس على شيء تخبص تحت قدميه . ومع سقطة البحلقة المتأملة على الشيء ، تقشعر اعصابه ، وينرفز في فرف ممتعض ... جمجمة ! .. كوم كبير من الجماجم المتعفسة المغطاة باسوداد الحراق الزفتي . يتراجع فزعا حابسا في جسمه شهقة نكاد تفلت . ويدعس أثناء التراجع على اخرى خلفه .. يراها وقد انفرزت تحت ثقله المرتبك، يبرز منها احمرار غامق عرف فيه احمرار احشاء البطيخ !. اذن فهي سيارة بطيخ مقصوفة بلؤم .

ومع هدوء الهيجان ، تجسر قدمه فتفقش واحدة تهدأ عليها نظراته وهو يتذكر الحكايا عن مفعول النابالم .

كل الخيام تتحدث عن قنابل النابالم .

ويستوعب المكان بنظرة شاملة تمر على الذين يتحركون بداب النمل فوق اكوام الاسوداد العريض . جميع هؤلاء سبقوه الى هنا .. فرصة ثمينة للبحث عن قطعة سلاح .. سيعود لك الشباب يا أبا أحمد اذا وجدت رشاشا !

تلك جثة !

يقترب في حماسة متوجسة هذه المرة . الجثة مسلوخة ومتفحمة ومعدومة الملامح ، وغائصة في الوحل المزوج بشمع النابالم المائع في تجمد خفيف . يبدو له ان صاحبها قصير ونحيف ورأسه صغير، ينبش بقدمه جانبها . يرفع يدها فيستشعر حرارة لاذعة ، ويشم رائحة الشواء الدسمة المعروفة في مطاعم المدينة . ينبش جانب الابط الملتصق على التراب المظلم .. جانب الابط الثاني .. لا شيء.

ويعز عليه الا يساعد الناس في نقلها .

يثيره ان يلاحظ امرأة بيضاء الملابس بعيدة هناك .. لا بد انها المسعفة . يظل هو أقوى منها على أية حال . ويرى الجثة خفيفة .. بامكانه على الاقل ، ان يسحبها نحو الشباب ، وهم سيرفعونها ويلقونها في جوف شاحنة الجثث . ينحني بعد ان يدس منديله في جيبه ، يمد يديه تحت كتفي الجثة الحارة .. يستحكم الابطين والسخونة تكوي راحتيه ، ويرفع بعزم فيتفسخ الصدر ، وتزحل الكتف اليمنى ، فيرمي الجثة ويبتعد جافلا مرعوبا ، ومطرقة صدره ترقص في جنون .

ومع استنشاق الهياج الخانف ، والهواء عابق بأدخنة الحرائق الهامدة ، تثور نمنمات الحلق وترعاه .. يتنخع .. يشدد خناق المنديل على انفاسه .. تخرج كحة .. يمسك عنقه بغلظة وهو يهتز الانحناءة مع تدفق السعلات الحادة . ويبصق بينا يعود التعب العام ، والمعتاد لجسمه .

يمشي متراخيا وبنات الهواجس تختلط في رأسه . فليس سهلا والحال هذه ، والجميع قد سبقوه ، ان يجد قطعة السلاح. .

ويترجى في أعماقه بحرارة ينغصها الاحساس بانه غريب هنا :

قطعة سلاح يا رب !

يقترب من شاب في ملابس الفدائيين ، متعرق ومنهمك في جمع الايدي والارجل والاعضاء المفصولة عن أصحابها من هنا وهناك ، ليضعها في كيس عرف فيه أبو أحمد ،انه واحد من أكياس طحين الاعاشة . وليس يدري لم توقف وحدق في الكيس عن بعد .

انه كبير ،ومن الاكياس التي تتسع لحصة عشرة انفار. سمرة الشاب مقشعرة ومتقززة ، ويداه مخضبتان بدهن الاجسام الذائب، والملوث ، والمعفر بلطخات دم جاف .

شباب مثل الشجر يموتون كل يوم !

تكاثر يأسه ، وسخنت حشاشته ،وحميت مآقيه . وفي نظرة ابوية عامة للمكان ، لاحظ ان سيارة الاسعاف واحدة ، والمسعفة واحدة أيضا . ابتلع غصة يأس ثقيلة ، ومثقلة بغصة خوف راعش .

شباب مثل الشجر يموتون كل يوم !

رائحة الشواء الدسمة ، المعروفة في مطاعم المدينة ، تتميز بوضوح هنا . ويسمع المسعفة تصيح ملوحة بيديها ، طالبة المساعدة . ويفهم انها وجدت جسما يتنفس ويجب ان تسرع في نقله . يقبل نحوها ثلاثة شباب ، ويركض هو ليرى الشهيد الذي يتنفس .كانت محنية البدن فوق الجريح، ومتعرقة ، وبياضها ممسوح بالدم، ومرق اللحم الملوث بشحار النابالم . ويرى وهو يصل ، حمالة الاسعاف تنقل جريحا مهترىء الملابس والجلد ، وفي غلالة من لعاب النابالم المعتم . والى جانب الجريح قماشة بيضاء عليها امعاء مزبدة ،وصفراء سائحة في الشحار والوان الدم ، في منظر يغشي النفس، ومتصلة مباشرة ببطن الجريح المفور ، والهامد امام فغصه الصدري المتنفس .

شباب مثل الشجر يموتون كل يوم !

وتغيب عنه المجموعة وهو في تحديق مذعور ، توقظه منه نمنمة خفيفة مهددة في حلقه .يترك مكانه ويروح في تجوال مستطلع متهالك. يكبر فيه الاحساس بالغربة ، ويتورم غيظا مقهورا في حناياه .. غيظا موجعا ومهينا لرجل ملجوم الرغبة . وتنبعث فيه مشاعر اللجوء منذ عشرين عاما ،عندما غادر قريته مع الاهالي ليلا . يحمل والدته على ظهره ، والمستورة تحمل طفلهما الاول . وايام اللجوء الثاني ، حين لم تشعر طولكرم بالصهاينة الا وقد صاروا خلفها ، رجالا ونساء مسلحين. وكان ذانه في اللجوءين ، الاحساس بالغربة ،وغيظه المقهور والموجع، والمهين .. قطعة سلاح يا رب !

رجال مثل الشجر يهاجرون كل مرة !

يرى رأسا مخبوصا في مكان الوجه ، وممتلىء الفجوات بدهن متسخ بزفتي الشكل ، ومتصلا بجثة قصيرة ومنتفخة ، صاحبها قصير ونحيف ورأسه صغير هو الاخر . وثمة جلطات شحم ذائب مختلط بالشعر على لحم العنق . جلد الجثة المنخرش مرقع بمثل بقع المجرب . انحنى مخاوصا عينيه قابضا انفاسه ، فظهرت له من شكل الرأس والصدر بقايا ملامح انثى .. صبية او امرأة او طفلة ... ممصوصة ، ومسلوخة ، ومتخشبة ، وفاحمة ، ومرشوش عليها شحار شمعي لزج .

هكذا اذن !.. قنابل النابالم تمسخ الاشياء . سيقول لهم في المخيم ، ان قنابل النابالم تمسخ الناس ، وتجعل الانسان قصيرا ونحيفا ، وصغير الرأس ، وتأكل وجهه .

ويلمح غير بعيد من مكانه فوهة بندقية !

وفي ركضات يقع فيها منديله وتفلت فردة حذائه ، يكون فوق الفوهة . يسحب القطعة ملهوفا مسعورا ، فيسقط على الارض في كسوف يائس : امامه رشاش اوتوماتيكي متحطم البنية ، كأنما ضربته مطارق الحدادة . وفي ثقوبه ، وعليه ، آثار الشمع الاسود الاكول . النابالم تأكل حتى الرشاشات . سيقول لهم في المخيم ، ان النابالم تأكل حتى الرشاشات .

وتمر لحظات وهو صافن في القطعة المحروقة المتقلصة .

لن يترك الرشاش على اية حال .. سيأخذه لعبة لولده الصغير عادل ..

فاته الوقت ولا أمل في عين الزيتون أيضا . عليه ان يسبق الجميع في المرات القادمة ، حتى لو اضطر الى الدخول في المعركة ، وهي مشتعلة ، وبدون سلاح . فأبو جهاد وخليل وحسين الاعور وكلهم حصلوا على سلاح ، وعلى ذخائر ايضا ، ولم يدفعوا قرشا واحدا . عليه ان يسرع ما استطاع في المرات القادمة . فهذا الرشاش قد مات لان أحدا لم يسرع في انقاذه ! .

حلب

اكرم شريم